الفصل الرابع عشر

في أوائل شهر تشرين الثاني من عام 2006م، كان بعض المسؤولين من معهد تدريب المعلمين المالاوي يقومون بزيارة تفقدية لمكتبة مدرسة ويمبي الابتدائية. حينها، لاحظوا الطاحونة الهوائية التي بنيتها في ساحة المدرسة. سألوا أمينة المكتبة؛ السيدة سيكيلو عمّن بناها؛ فأعطتهم اسمي. ثمّ ما لبث أحدهم أن أجرى اتصالاً مع المكتب الرئيس للمعهد في زومبا الواقعة في المنطقة الجنوبية، وأخبر رئيسه في العمل، د. هارتفورد متشازيمي بالأمر.

بعد أيام عدّة، توجّه متشازيمي إلى ويمبي في رحلة استغرقت خمس ساعات بالسيارة. أخذه سائقه إلى بيتي، وسأل والدي أكان بإمكانه مقابلة الصبي الذي بنى الطاحونة؟

قال والدي: **إنّه هنا**، ثمّ ناداني من غرفتي.

كان متشازيمي رجلاً طاعناً في السنّ، ذا شعر أشيب وعينين رقيقتين. كان ضليعاً في اللغة، رصيناً في أسلوبه، جزلاً في ألفاظه حين يتحدث. لم أسمع من قبل أحداً يتحدث لغة التشيتشيوا بهذه الدقة والبراعة، وكانت لغته الإنجليزية مميزة أيضاً.

قال: **أخبرني كلّ شيء**، فقد أراد معرفة كلّ شيء عن الطاحونة، وعن كيفية بنائها.

شرحت له الأمر كما فعلت آلاف المرات من قبل، ثمّ أخذته في جولة داخل البيت، شارِحاً كيفية عمل المفاتيح وقاطع الدارة.

أنصت باهتمام، وهزّ رأسه، ثمّ سأل أسئلة محدّدة.

– هذه لمبات صغيرة جدّاً، لماذا لا تستخدم لمبات أكبر؟

– تتطلّب اللمبات الكبيرة تياراً متناوباً. أمّا تشغيل أكبر عدد من اللمبات فيتطلّب شحن بطارية، وهذه تستخدم التيار المباشر. إنّ أضواء السيارات الصغيرة هذه هي اللمبات الوحيدة التي تمكّنت من الحصول عليها، وتعمل بالتيار المباشر.

– أيّ مراحل التعليم أنهيت؟

– تركْتَ المدرسة في السنة الأولى من المرحلة المتوسطة، فكيف عرفْتَ تلك الأمور عن الفولتية والطاقة إذن؟

– كنت أستعير الكتب من مكتبة المدرسة.

– مَنْ علّمك مثل هذه الأمور؟ مَنْ ساعدك؟

– لا أحد، لقد قرأت، وعملت كلّ شيء وحدي.

بعدئذٍ، ذهب متشازيمي لرؤية والديّ.

قال: **لديكما إضاءة في البيت بفضل ابنكما، ما رأيكما في ذلك؟**

قالت والدتي: **نحن فخورون به، لكنّنا اعتقدنا أنّه جنّ.**

ضحك متشازيمي، وهزّ رأسه، ثمّ قال: **أريد أن أخبركما بشيء، قد لا تدركان ذلك، لكنّ ابنكما فعل شيئاً عظيماً، وما هذه إلّا البداية. سيأتي مزيد من الأشخاص إلى هنا لرؤية ويليام كامكوامبا. لديَّ شعور أنّ هذا الفتى سيكون ذا شأن في المستقبل. أريدكما أن تكونا مستعدين.**

جعلتني تلك الزيارة مشوّشاً قليلاً، ومتحمِّساً كثيراً؛ إذ لم أعهد أحداً سألني مثل تلك الأسئلة من قبل، كما لم يُظهِر أيّ شخص ذلك القدر من الاهتمام. في ظهيرة ذلك اليوم، عاد متشازيمي إلى زومبا وأخبر زملاءه بما رآه.

فقالوا: **هذا رائع. يجب أن يعرف العالَم بأسره عن هذا الصبي.**

قال متشازيمي: **أوافقكم الرأي، ولديّ فكرة مناسبة لفعل ذلك.**

فـي الأسبوع اللاحق قَدِمَ متشازيمي إلى بيتي مجدّداً. ولكن، برفقة صحفي من محطة راديو وان. لقد كان الصحفي المشهور إيفيرسون ماسيا الذي سمعت صوته على مدار سنين، وها هو الآن في بيتي؛ لإجراء مقابلة معي. وفيما يأتي نصّ المقابلة:

– ماذا تُسمّي هذا الشيء؟

– أُسمّيه الرياح الكهربائية.

– ولكن، كيف تعمل؟

– تدور الشفرات، فتولِّد الطاقة عبر المولِّد.

– **وماذا تود أن تفعل بها مستقبلاً؟**

– **أريد أن أصل إلى كلّ قرية في مالاوي؛ لكي يحصل الناس على الإضاءة والمياه.**

بعـد يومين، وفي أثناء انتظار بـثّ المقابلة التي أجريتها مع الإذاعة، حضر متشازيمي مجـدّداً مع مزيد من المراسلين. كان أولئك الرجال يمثِّلون وسائل الإعلام الكبيرة جميعها فـي مـالاوي: محطتي **مودزيوذو وزودياك** الإذاعيتيـن، وصحف **ذا ديلي تايمز، وذا نيشن، ومالاوي نيوز، وغارديان نيوز**. وقد طفقوا يخرجـون من السيارة حامليـن آلات جمعيعها (الكاميرات) وآلات التسجيل، ثمّ حاموا حول الطاحونة.

وبعد أن تجوّلوا في أرجاء البيت مدّة ساعتين، أخذوا يتزاحمون لالتقاط أفضل الصور للمفاتيح ونظام البطارية.

كان أحدهم يصرخ قائلاً: **لقد حصلت على دورك، وحان دوري الآن!.**

ويقول آخر: **تنحَّ جانباً؛ فأنا من صحيفة عريقة!.**

وسرعـان ما امتلأت باحة بيتنا بحشود قَدِمت من المركز التجاري، وتجمَّعت للتحديق – ببلاهة – بالصحفيين المشهورين الذين وفدوا إلى قريتنا، ثمّ أخذ بعض منهم يقول:

– انظروا، إنّه نويل مكوبوي من محطة زودياك!.

– ها نحن ذا نرى وجهه أخيراً. يا له من رجل وسيم!.

– انظروا، إنّه يجري مقابلة مع ويليام!.

وقد وصل الأمر بأحد المراسلين إلى تسلّق البرج، وتفحّص الشفرات ونظام البكرة، والمواظبة على التقاط الصور في أثناء ذلك، ثمّ صرخ قائلاً: **هذا الفتى عبقري يا متشازيمي.** فردّ: **هذا صحيح، وتلك مشكلة النظام عندنا؛ فنحن نفقد أشخاصاً موهوبين مثل هذا الصبي طوال الوقت نتيجة الفقر. وحتى لو أعدناهم إلى المدرسة، فمستوى التعليم هناك متدنٍّ. لقد أحضرتكم هنا؛ لأنّني أريد أن يرى العالَم ما فعله هذا الصبي، وأن يقدّموا له الدعم.**

المراسلون في أثناء زيارة قريتي للكتابة عن طاحونتي الهوائية. يُعَدّ هؤلاء الرجال من المشاهير بالنسبة إلى القرويين أمثالنا.

أخبرنا متشازيمي أنّه عانى شخصيّاً انتكاسات على المستوى التعليمي حين كان صغيراً. فقد كان والده مُزارِعاً فقيراً أيضاً، يُكافِح لتوفير الغذاء والكساء لعائلته. لكنّ والده كان يُدرِك أهمية التعليم أيضاً؛ ففي أثناء عمله في مناجم الذهب بروديسيا، حُرِم من فرص عدّة لأنّه أُميّ. وبدا أنّ ذلك الفشل يطارده بقية حياته.

فـي مرحلة ما مـن طفولة متشازيمي، كانت عائلته تجد قوت يومهـا بشقّ الأنفس. وقد تطـوّع حينهـا لترك المدرسة والعمل؛ لكي يتمكّن بقية أخوته مـن إكمال تعليمهم. لكنّ والده رفض ذلك، قائلاً: «**سيبقى أبنائي جميعاً في المدرسة. سأفعل كلّ ما يلزم لضمان ذلك**». وقد تطلّب الأمر نحو عشر سنوات من متشازيمي لينهي المرحلة المتوسطة ثمّ حصل أخيراً علـى منحة من جامعة مالاوي بزومبا حين كان في سنّ الثالثة والثلاثين، وحصل لاحقاً على درجتـي الماجستير والدكتوراه من جامعات فـي أمريكا وبريطانيا وجنوب إفريقية. يُذكَر أنّ متشازيمـي ألَّف كثيـراً من الكتب الدراسية في مالاوي قبل انضمامـه إلى المعهد، من بينها كتاب اللغة الإنجليزية خاصتي.

فـي اليوم اللاحق لزيارة الصحفيين، بُثَّت المقابلة التي أجراها إيفيرسون ماسيا عبر محطة راديو وان. وقد كنت خلف البيت أتكلّم مع عمّتي حين صرخت أمي قائلة: **تعالَ بسرعة يا ويليام. لقد بدأت!**.

تجمَّعـت عائلتي كلهـا حول المذيـاع، وسمعت المقـدِّم يقول: **لقـد صنع صبـي رياحاً كهربائيـة فـي ويمبي الواقعة قرب كاسونغـو**. ولمّا أخذ صوتي يصدح من السمّاعات بدأت شقيقاتي بالهتاف.

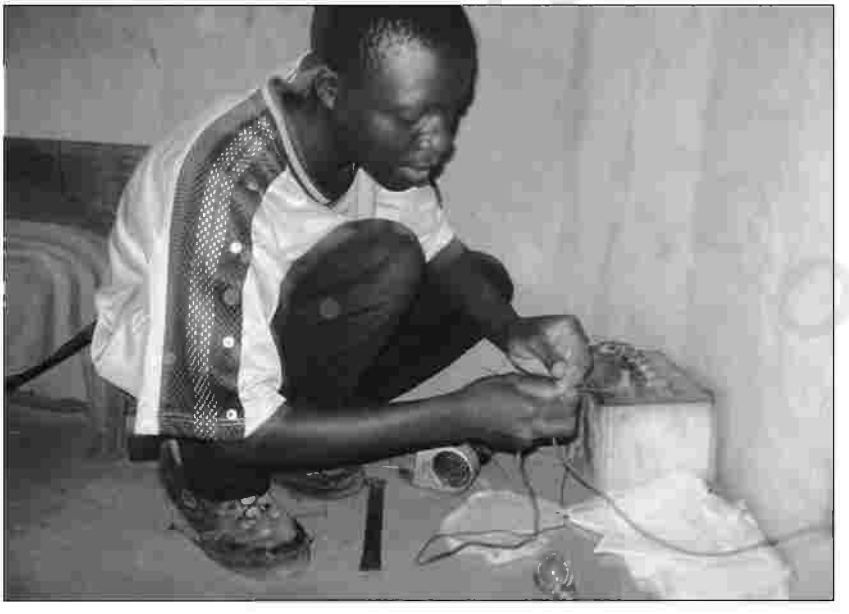

ها أنذا أصل الطاحونة الهوائية بالبطارية ليشاهدني الصحفيون، وأحاول ألّا أنفجر ضاحكاً. كنت متوتّراً جدّاً، ولكنّني كنت متحمّساً أكثر.

لـم تتوقّف الأحداث السعيدة عند حـدّ المقابلة الإذاعية؛ ففي الأسبوع اللاحق، نُشِرت قصتـي في صحيفة ذا ديلي تايمز بعنوان عريض، هو **صبي يترك المدرسة ليشع عبقرية**. وقـد ضَـمّ الخبر صورة لـي وأنا في غرفتي أتظاهـر بوصل الأسلاك بالبطاريـة، محاولاً ألّا أبتسـم. وفي ظهيرة ذلك اليـوم، أخذْتُ الصحيفة إلى السوق التجاري لأُطلِع الجميع على ما فعله الرجل المجنون.

قـال بعضهم: **لقـد سمعنـاك بوساطـة المذياع أيضـاً. هل تعيّـن عليك الذهـاب إلى بالنتاير؟**

فأجبت: **لا، لقد جاءوا هم إليَّ.**

قالوا: **حقّاً! نحن فخورون جدّاً بذلك. لقد مثّلْتَنا أحسن تمثيل، وأُعجبنا بالطريقة التي تحدثت بها.**

تطلّـب الأمـر – بطريقـة أو بأُخرى – قدوم أولئـك الصحفيين إلى بيتـي؛ لكي يتقبّل سكان القرية الطاحونة الهوائية أخيراً. أعتقد أنّ ذلك كان نوعاً من الاعتراف. فقد تضاعف عدد زوّار بيتي عشرات المرّات بعد تغطية الإذاعة والصحيفة.

بعد نشر القصة بوقت قصير، بدأت حملة تحسينات ضرورية على الطاحونة الهوائية؛ إذ أدركت أنّ شجرة الأكاسيا الكبيرة الموجودة خلف المرحاض تصدّ أعتى الرياح وأقواها. لـذا، كان عليَّ جعـل الطاحونة أطول. فذهب والدي إلى مدير شركة التبغ، متأبِّطاً الصحيفة التـي نشرت الخبر، وأقنعـه بالتخلّي عن بعض الأعمدة الضخمة، التـي استخدمتها – فيما بعد – لبناء برج يبلغ ارتفاعه ستّاً وثلاثين قدماً. وما إن أبعدت الطاحونة عن الشجرة حتى تضاعفت سرعة الشفرات، وتضاعفت الفولتية أيضاً.

وكان متشازيمـي قـد عاد إلى زومبا بعدمـا فرغ من زيارة بيتي برفقـة المراسلين، ثمّ جمع زملاءه هناك، قائلاً: **أعتقد أنّه يجب إعادة هذا الفتى إلى المدرسة. ينبغي له إكمال تعليمـه وتطويـر قدراتـه. فبـذا، تصبح تلـك الاختراعـات موثوقـة، وسيحتـرم الناس ما يفعله. ستكون قدراته محدودة من دون تعليم.**

قال أحد الزملاء: **نوافقك الرأي. فقد نتمكّن من إقناع منظّمة ما كي تدعمه.**

قال متشازيمي: **سنكون قادرين على ذلك في نهاية المطاف. ولكن، علينا الآن إعادته إلى المدرسة في أقرب وقت ممكن. فهل يمكنكم التبرُّع بشيء من رسومه المدرسية هنا؟**

أخـرج متشازيمـي رزمة من المال من جيبه، ثمّ وضعها علـى الطاولة، قائلاً: **ها هو ذا إسهامي من مالي الخاص. فمَنْ سيحذو حذوي؟**

جمع متشازيمي مع نهاية اليوم نحو ألفي كواتشا.

فـي ذلك الأسبوع، اتصل متشازيمي بوزارة التعليم، وطلب إلى بعض المسؤولين إيجاد مدرسة جيدة لويليام. لكنّه لم يلقَ استجابة لمكالماته أو رسائله، فذهب بالسيارة إلى مكتب مديرة التعليم المتوسط.

قال لها: **لقد أرسلت إليكم رسالة.**

قالـت: **لقد تلقينا رسالتك. قصة هذا الفتى مثيرة للاهتمام. سنجد له مكاناً. لكن، ليس الآن.**

قال متشازيمي: **أنتم تؤخّرونه. إنّه يكبر كلّ يوم، وكلّما أخّرتموه أكثر رفضته مدارس أكثر بسبب تقدّمه في السنّ. حاولوا تسريع العملية.**

قالت المرأة: إنّها ستبقى على اتصال، لكنّ أحداً منهم لم يتصل. ولمّا عاد متشازيمي أخبروه أن يذهب إلى كاسونغو لمقابلة مديرة قسم المدارس في المنطقة الشرقية الوسطى. فركـب سيارتـه قاصِداً مكتبها في رحلـة استغرقت أربع ساعات. قالـت المديرة: **لقد قرأت قصة هذا الفتى. إنّه مثير للاهتمام.** ردّ متشازيمي قائلاً: **أجل، إنّه مثير للاهتمام، فكفّي عن تضييع الوقت. يجب أن يلتحق بالدراسة حالاً.**

قالت: **هناك تدابير يجب اتباعها.**

فقال: **من المؤكّد أنّك قادرة على منح استثناء. يجب أن يكون هناك إعفاء ما؟**

قالت: **حسناً، سأذهب لرؤية الطاحونة الهوائية بنفسي.**

حيـن كنت في السوق التجاري أقوم ببعض المهام التي كلَّفني بها والدي، جاءت مديرة المدارس لرؤية الطاحونة، يرافقها بعض الأشخاص مـن وزارة العمل. كانوا يرتدون بدلات رسميـة، ووجوههم تتصبَّب عرقاً بسبب وقوفهم تحـت أشعة الشمس الحارقة. لم يذكروا سبب وجودهم هنا، واكتفـوا بالطلب إلى والدتـي أن يلقوا نظرة. قال بعدهـا أحد مسؤولي وزارة العمل لزملائه: **لدى هذا الفتى موهبة مميَّزة. يتعيّن علينا ضمّه إلى إلينا نحن في حاجة إلى أمثاله في الحكومة!.**

اتصلـت مديرة قسم المدارس بالدكتور متشازيمي عندما عادت إلى مكتبها، قائلة له: «**إنّك محق. يجب إلحاق هذا الفتى بالمدرسة، وأعتقد أنّ لديَّ مكان مناسب له.**

قال: **يجب أن تكون مدرسة داخلية متخصّصة في العلوم. أرجوك أن تعجلي بالأمر.**

قالت: **سنتولّى نحن هذا الموضوع من الآن فصاعداً.**

في هذه الأثناء، كان هنالك شيء آخر مدهش يحدث من دون علمي. فبعد يوم من نشر المقالة عنّي في صحيفة ذا ديلي تايمز، قام رجل مالاوي من ليلونغوي، يُدعى سويابي مومبا بإحضـار المقالة إلى مكتبه. كان سويابي يعمل مهندس برمجيات ومدوِّن رموز (كودات) في باوبـاب هيلث، وهي منظّمة غير حكومية بإدارة أمريكية، تتولّى مكننة (أتمتة) نظام الرعاية الصحية بمالاوي الذي يفتقر إلى التنظيم؛ كونه مجرّد أكوام من السجلات القديمة.

أحـبّ أحد رؤساء سويابي في العمل المقالة المتعلقـة بالطاحونة الهوائية، وكان رجلاً أمريكيّـاً طويلاً يُدعى مايك ماكّيه، فكتب عنها في مدوّنتـه التي تُسمّى هاكتيفيت. وقد لفت الخبـر المذكور في المدوّنـة انتباه إيميكا أوكافور، وهو مدوّن وريادي نيجيري مشهور ومدير البرنامج في مؤتمر كبير يُدعى **تي إي دي غلوبال 2007**.

أرادنـي إيميـكا أن أتقـدّم بطلب كي أصبح (عضـواً) رسميّاً في ذلـك المؤتمر، وحاول جاهـداً الاتصـال بي على مـدار ثلاثة أسابيـع. وبعد مضايقـة مراسلـي الصحيفة بصورة يوميـة، تمكَّن أخيراً من الوصول إلى الدكتور متشازيمي. ففي منتصف شهر كانون الأول من عـام 2006م، جـاء متشازيمي إلى بيتي حامـلاً طلب مؤتمر **تـي إي دي**. جلسنا تحت شجرة المانجـو، وأخـذ يساعدني على إجابـة الأسئلة، إضافة إلى كتابة مقالـة صغيرة عن حياتي.

وحتى بعد أن غادر، لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن ماهية **تي إي دي**، أو ما يشير إليه اختصاره (يعني بالإنجليزية: التقانة (التكنولوجيا) والترفيه والتصميم، وهو لقاء سنوي يجمع العلماء والمخترعين والمبتكرين الذين يمتلكون أفكاراً مهمة إبداعية لتبادل الخبرات).

لـم أكـن متأكّداً من معنى كلمة مؤتمر أصلاً، أو ممّا يفعلـه المدعوّون خلاله. لم يذكر الطلـب مكان انعقاد المؤتمر. وقد ساورني شـكّ أنّه سيقام في ليلونغوي، لكنّني لم أكن على يقيـن. بدأت أتخيّل نفسي أمشي فـي شوارع العاصمة، وأتأمّل مختلـف أصناف الناس. قال كثيـرون إنّ ليلونغـوي مليئة باللصوص، لكنّني لـم أكن خائفاً. فقد قـرَّرت مسبقاً أن أذهب إلى السوق وأطلب المساعدة من النسوة هناك، في حال واجهت أيّ مشكلة. فدائماً ما تقدِّم النساء المساعدة للآخرين. ولكن، ماذا سأرتدي عند حضور المؤتمر؟ كانت كلّ الثياب التي أملكهـا تتدلّى مـن حبل في غرفتي، وكانت حمراء بسبب الغبـار المتراكم على السقف. ومع ذلك، فقد كان لديَّ سبب لأحلم.

فـي بداية شهر كانون الثاني؛ أي مع مطلع العام مباشرة، اتصل أحد زملاء متشازيمي بهاتف جيفري (لم يكن لديَّ هاتف نقّال)، ليوصل رسالة تفيد باختياري للمشاركة في مؤتمر **تي إي دي**.

قال لجيفري: **أخبره أن يستعد، فهو سيذهب في رحلة.**

لـم يعرف جيفري التفاصيل، لكنّه قـال: إنّ متشازيمي سيتصل بي. ل في غضون ذلك الأسبوع، اتصل متشازيمي مجدّداً. وصادف أنّني كنت قرب جيفري، فناولني الهاتف.

قـال: **ستذهب إلـى أروشا في تنزانيا حيث ستُكرَّم برفقـة علماء ومخترعين آخرين. سيحضر المؤتمر ممثّلين من شتّى أنحاء العالم. قد تخرج بشيء جيد من هذا الأمر.**

واو، أروشـا. أخـذت أتخيّل الرحلـة التي سأقطعهـا بالحافلة. كم ستستغـرق يا تُرى؟ سيكـون لدي كثير من الطعـام، ربّما آخذ الكعك والذرة المشوية. لـم يكن لديَّ مال على أيّ حال.

قال: **هنالك أمر مهم، يجب أن نحجز تذكرة الطائرة في الوقت المحدّد.**

قلت: **سأسافر بالطائرة؟ يا إلهي!.**

قال: **نعم، ويودّون معرفة أتفضّل الإقامة في غرفة للمدخنين أم غير المدخنين بالفندق؟**

قلت: **فندق؟ سأنزل في فندق؟**. ظننت أنّني سأبيت في أحد دور الضيافة القريبة من أوكار الخمور حيث ينزل الفقراء.

قال: **أجل، ستنزل في فندق، ولديَّ أخبار طيبة أخرى. ستعود إلى المدرسة يا ويليام.**

أخيراً، وبعد أشهر من المفاوضات مع وزارة التعليم، مُنِحت الإذن للالتحاق بمدرسة **ماديسي المتوسطة**، وهي مدرسة داخلية حكومية تبعد نحو ساعة عن بيتي. لم يكن توجّه هذه المدرسة علمياً كما اقترح متشازيمي؛ فمديرو تلك المدارس لم يقبلوا بضمّي بسبب تقدّم سنّي، وعدد السنوات التي فوّتها. لكنّ مدير مدرسة ماديسي، السيد رونيكس باندا، كان قد تأثّر بقصتي كثيراً لدرجة أنّه أبدى استعداداً للاستفادة من وقت فراغه في مساعدتي على اللحاق بالآخرين. لقد كنت متأخّراً كثيراً.

في الوقت الذي خطط فيه متشازيمي لرحلتي إلى أروشا، أخذت أحزم أمتعتي للتوجّه إلى المدرسة. كانت تلك أول مرة أعيش فيها بعيداً عن البيت. كان لديَّ حقيبة سوداء اشتريتها قبل ذلك بأسابيع، في أثناء وجودي في ليلونغوي لزيارة شقيق جيفري جيريمايا الذي كان قد انتقل للعيش فيها قبل عامين. وضعت في هذه الحقيبة فرشاة ومعجون أسنان، إضافة إلى خفيّ، وبطانيتي، وثلاث فانيلات، وبنطال، وقميص جميل، وزوجين من الجوارب، وآخرين من الملابس الداخلية. كانت للحقيبة عجلات. لذا، قمت بجرها عبر الباحة، ثمّ توقّفت تحت شجرة المانجو. كان والداي هما وجيفري في انتظاري.

قلت: **سأراكم لاحقاً.**

فقال والدي: **اعمل بجدّ يا بنيّ. أريدك أن تعرف أنّنا فخورون بك جدّاً.**

ربط جيفري الحقيبة إلى درّاجته الهوائية، ثمّ نزلنا الطريق باتجاه موقف الشاحنات. ولمّا مررنا ببيت غيلبرت توقّفنا عنده.

سأل غيلبرت: **لا يوجد لدينا هواتف، فكيف سنكلّمك؟**

أجبت: **سيكون الأمر صعباً.**

قال: **قد أتمكّن من زيارتك هناك.**

قلت: **سيكون ذلك رائعاً يا غيلبرت. حاول أرجوك.**

قال: **سأشتاق إليك يا صديقي.**

قلت: **وأنا كذلك.**

توقّفنا في موقف الشاحنات وانتظرنا، وسرعان ما ظهرت شاحنة من أسفل الطريق تلفّها غيمة من الغبار الأحمر. فلوَّح جيفري بيده ليتوقّف السائق، قائلاً: **أراك حين تنتهي الدراسة. عندما تصل هناك، ابحث عن شخص يملك هاتفاً وأرسل إليَّ رقمه. سنتمكّن من التحدث بتلك الطريقة، وسيكون غيلبرت إلى جانبي.**

قلت: **سيكون ذلك رائعاً. هلّا قمت برعاية طاحونتي؟ أخبرني إن جَدَّ جديد.**

قال: **أجل، لا تقلق.**

حشرت نفسي في الشاحنة برفقة آخرين، ووجدت كيس فحم جلست عليه، ثمّ أخذت الشاحنة تشقّ طريقها نحو كاسونغو. وما إن وصلت هناك حتى ركبت حافلة صغيرة عبر طريق إم 1 السريع باتجاه بلدة ماديسي الصغيرة. أنزلتني الحافلة عند تقاطع على أطراف البلدة، حيث الطريق الطويل المؤدي إلى المدرسة. مشيت مسافة كيلومتر بحقيبتي التي تتقافز من خلفي على الطريق الحصوي حتى وصلت إلى بوابة حديدية. أصبح لديَّ في دقائق غرفة وزملاء في السكن، ومواعيد للوجبات، وجدول حصص صارم. كان كلّ شيء جديداً وغريباً وغامراً بعض الشيء. ولكن، يا إلهي كم كنت سعيداً لتمكّني أخيراً من التعلّم في مدرسة حقيقية. كان للغرف الصفية في مدرسة ماديسي سطوح متينة لا تسرِّب المياه، وأرضية أسمنتية ملساء تخلو من الحفر. كان هنالك نوافذ كبيرة وسليمة تمرِّر ضوء الشمس، وتقي من البرد. كان لديَّ مقعد دراسي حقيقي مخصوص بي يحتوي على مكان لوضع القلم.

كان هنالك أضواء متوهّجة حقيقية تشعّ في أثناء الحصص الدراسية الليلية (في الأقل عندما لم يكن هناك انقطاع للتيار).

كانت دروس العلوم تُعطى في مختبر كيمياء حقيقي، حيث تحوي الرفوف هناك مجاهر ضوئية، وبكرات ضخمة لأسلاك ذات مقاومة عالية، ودوارق زجاجية، وجِراراً قديمة تحوي حِمض البوريك. تخيّلوا أنّ أول درس تعلّمناه من مدرِّسنا الأستاذ بريشوس كوتشولولا كان عملية سريان التيار ومروره بجرس الباب. كنت قد طبَّقت هذا المفهوم سابقاً على الطاحونة وقاطع الدارة، لكنه شرحه بطريقة علمية – وباللغة الإنجليزية – جعلني أعتقد أنّني لم أعرفه إلّا هذه اللحظة.

كانت مدرسة ماديسي تعتمد على الحكومة في استمراريتها وبقائها، شأنها في ذلك شأن بقية المدارس الأخرى في مالاوي، لكنّها أُهمِلت خلافاً للمدارس الداخلية الأهم شأناً. كانت معظم الأدوات المستخدمة في مختبر العلوم من عهد الرئيس باندا؛ فكانت قديمة ومعطّلة. كما كانت المواد الكيميائية منتهية الصلاحية، وتعدّ خطراً على الجميع. أمّا المجاهر فكانت صدئة ومخدوشة، وكنّا نفتقر إلى البطاريات اللازمة لدرس جرس الباب.

قال المدرِّس: **إذا كان لدى أحدكم بطارية جافة إضافية في غرفته فسأشرح لكم الدرس بكلّ سرور.**

لم يكن لدى أحد أيٌّ منها، لذا كان علينا استخدام خيالنا.

كان سكننا قذراً، وجدرانه مغطّاة بالكتابات. ولم تكن المبولات في الحمام تعمل. لذا، تعيّن على طلاب المستوى الأول (الطالب الجديد الذي هو أنا تحديداً) تنظيفه كلّ يوم حتى لا تصدر منه الروائح. كانت الغرف مكتظة لدرجة أنّه كان على كلّ طالبين النوم في سرير واحد صغير. كان زميلي في السرير يّدعى كينيدي، ولم يكن ينظِّف جواربه قطّ.

قلت له: **عليك غسل قدميك قبل دخول السرير معي يا رجل.**

قال: آسف، **فأنا لا أنتبه لذلك مطلقاً. أعدك أن أغسلها غداً.**

لكنّه لم يغسلها كالعادة. كنت كثيراً ما أستيقظ لأجد قدمه تلامس وجهي.

كنت أكبر من البقية ببضع سنين. لذا، بدأ كثير من الطلاب بمضايقتي. فكانوا يصرخون قائلين: **كم طفلاً تركت في المزرعة أيّها العجوز؟**

فأردّ قائلاً: **صَبِيّان، وهناك ثالث على الطريق. ربّما يولَد الشهر المقبل.**

فيقولون: **يعتقد العجوز أنّه يجيد سرد النكات. إنّ تمضية وقت طويل مع الأبقار قد أثّر فيك أيّها الراعي.** قرَّرت في أحد الأيام وضع حدٍّ للمضايقات بصورة نهائية. فأخرجت مقالة الصحيفة التي كتبت عن طاحونتي الهوائية ووضعتها

على الطاولة، ثمّ قلت: **هاكم، هذا ما كنت أفعله.**

تأثّر جميع الطلاب الموجودين في السكن، قائلين: **أحسنت صنعاً! كيف تمكّنت من فعل ذلك؟**. ومنذ ذلك الحين، لم أتعرّض لأيّ مضايقات.

كنت حقّاً سعيداً لوجودي في مدرسة بعد غياب خمسة أعوام. ولكن، بعد أسبوعين من وجودي في ذلك المكان الغريب، ونظراً إلى الوحدة التي أعيشها بعيداً عن بيتي وعائلتي؛ أصبحت حزيناً بعض الشيء. كنت غالباً ما أختبئ بعد الدرس في مكتبة المدرسة، حيث الكتب تملأ الرفوف الكثيرة. وكنت أختار كرسيّاً، ثمّ أبدأ أُطالع كتبي الدراسية التي تتعلق بالجغرافيا، والدراسات الاجتماعية، والزراعة، والأحياء، واللغة الإنجليزية، والرياضيات. وقد أصبحت مولَعاً بالتاريخ الأمريكي والإفريقي، وبخرائط العالَم الملونة. فمهما كان العالَم في الخارج موحِشاً ويبعث على الوحدة، فإنّ الكتب كانت دائماً تُذكّرني ببيتي، حيث كنت أجلس تحت شجرة المانجو.

عندما كنت أرتاد المدرسة بماديسي، كان الدكتور متشازيمي مشغولاً بالتحضير لرحلتي إلى أروشا. وكان قد ساعدني على إصدار جواز سفر قبل ذلك بأشهر. ولما أنّني لم أسافر بالطائرة أو أنزل في فندق من قبل، فقد أخذني من المدرسة في عطلة نهاية الأسبوع ليعطيني دروساً في السفر حول العالَم. ركبت حافلة صغيرة مدّة ست ساعات لأصل إلى زومبا، ثمّ زرنا فندق ماسونغولا حيث كان ينزل كثير من السياح. طلب متشازيمي إلى مدير الفندق أن يريني إحدى الغرف، وطريقة تعبئة بطاقة بيانات النزيل، وكيفية طلب الطعام من المطعم. ولكن، لما كان المبيت بفندق ماسونغولا باهظ النفقات، فقد حجز متشازيمي

لي غرفة في مسكن بيتر (فندق قليل النفقات). كانت تلك أول ليلة أبيتها في فندق، وأول مرّة أنام فيها على فرشة حقيقية.

كان متشازيمي قد جمع التبرّعات أيضاً لشراء قميص أبيض جميل وبنطال أسود لأرتديهما في أثناء الرحلة. وكانت تلك أجمل ثياب اقتنيتها في حياتي آنذاك. وحرص أيضاً على تقديم نصائح مهمّة لي بشأن السفر. فعلى سبيل المثال، أخبرني بأنّه حجز لي مقعداً مخصوصاً بي وحدي في الطائرة. لذا، لن يكون هنالك داعٍ للاندفاع والمزاحمة كما نفعل عند ركوب الحافلة الصغيرة. ثمّ أضاف: إذا كان الضوء الأحمر أعلى الحمّام مُضاءً فذلك يعني أنّه مشغول، ولا تنسَ أنّ هناك كيساً ورقيّاً عند كلّ كرسي لغرض التقيؤ؛ لأنّ بعض الأشخاص قد يصابون بالغثيان في أول رحلة لهم بالطائرة. كنت سعيداً للحصول على مثل ذلك الكيس؛ ليقيني أنّني سأستخدمه.

غادرت المدرسة في شهر حزيران، وركبت حافلة صغيرة، عائداً إلى البيت كي أحزم أمتعتي. وفي صباح اليوم اللاحق، جاء سائق لاصطحابي إلى المطار في ليلونغوي. فقال والدي لوالدتي مبتسماً: «**سيغادر ابننا ليسافر بالطائرة**». قلت: **هذا صحيح؛ سأطير في السماء كالطيور. سألوّح لكم عندما أمرّ بالقرية.**

قالا: **سنكون هنا لنراك، وسترانا أنتَ من فوق.**

بعدئذٍ، وضع والدي كيساً من الجوز المحمّص في جيبي، وكان لا يزال ساخناً.

كنت متوتّراً جدّاً تلك الأمسية في ليلونغوي، لدرجة أنّني لم أتمكّن من النوم، وبقيت مستيقظاً طوال الليل في غرفتي بالفندق، أُتابع قناة **سوبر سبورت**. كنت لا أزال مستيقظاً حين أشرقت الشمس، وحان موعد المغادرة.

لم أُصدِّق نفسي حين أصبحت داخل الطائرة، فقد كان يجلس إلى جانبي سويابي مومبا، مهندس البرمجيات من ليلونغوي الذي كان أول مَنْ شاهد المقالة خاصتي. عرَّف عن نفسه من باب أنّه رجل لطيف، ولم يكن يدري مَنْ أنا. وحين قلت له اسمي والمكان الذي أقصده، قال: **يا إلهي، أنتَ ويليام صانع الطاحونة الهوائية!**، ثمّ أخبرني أنّه هو مَنْ أطلع مايك ماكيه على المقالة التي تناولت قصتي، فنشرها هذا الأخير عبر مدوّنته هاكتيفيت.

وفي واقع الأمر، يُعزى الفضل إلى سويابي في تعريف الجميع بشأني وشأن طاحونتي الهوائية، فضلاً على موضوع ذهابي إلى المؤتمر، وها هو ذا الآن يجلس بجانبي في الطائرة! وقد صادف أنّ سويابي كان عضواً في مؤتمر تي إي دي أيضاً، وأنّه سيُكرَّم للعمل الذي قام به بخصوص الرموز (الكودات) مع منظّمة باوباب. لقد كنت سعيداً جدّاً لوجوده معي.

كانت الطائرة لامعة نظيفة، وكان مكيِّف الهواء بارداً منعِشاً في ذلك اليوم الحارّ. يا له من مكان جميل! تشبَّثْتُ بمقعدي مبتسماً بينما أخذت الطائرة تتحرّك صوب المدرج. كنت موقِناً أنّ الجميع كان يعرف أنّها أوّل مرّة بالنسبة إليّ. كان الأشخاص الجالسون حولي متأنّقين واثقين من أنفسهم. وكان لديهم أعمال مهمة، وكانت حياتهم الحافلة بالعمل تتطلّب السفر بالطائرات حول العالّم باستمرار. وفي الوقت الذي زادت فيه الطائرة من سرعتها عبر المدرج ورفعت مقدِّمتها في الجو، أرجعت رأسي إلى الخلف بقوّة وضحكت.

أعتقد أنّني أصبحت واحداً منهم الآن.